International Journal for Scientific Research (IJSR)
المجلة الدولية للبحوث العلمية
Vol. (2), No. (2)
February 2023
الإصدار (2)، العدد (2)

تَداوُليةُ الحِوارِ وأَنماطُ التفاعُلِ اللفْظيّ في خِطابِ الأَزَماتِ بَينَ الواقِعي والمخيّل

Pragmatic of dialogue and types of verbal interaction in crisis discourse Between Reality and Fiction

الطاهر الجزيري

أستاذ الأدب والنقد المساعد بجامعة حائل – المملكة العربية السعودية

jaziritahar20111@gmail.com

الملخص:

تقدم هذه الدراسة محاولة لتفكيك بنية التفاعل اللفظي بأنماطه المختلفة: حوارات، ومحادثات، ومناقشات، ومقابلات، ومناظرات في نماذج تطبيقية مختلفة؛ إحداها متخيلة كرواية عائشة البصري "كجثة في رواية بوليسية"، وأخرى واقعية كتلك التي دارت بين عدد من المشاركين والمتدخلين والفرقاء زمن جائحة الحمّى التاجية أو كورونا (Covid19)، التي انتشرت تدريجيا في أرجاء هذا العالم فأحدث صدمة مروّعة خلطت الأوراق ودفعت الإنسان المعاصر إلى مراجعة حساباته اجتماعيا، وعلميا، ودينيا، وسياسيا. وعندما كان الحوار هو المعوَّل عليه لمواجه تلك التحديات التي فرضها الواقع، ظهرت الأزمة بأنواعها؛ أزمة تواصل، وتفاعل، وتوافق، ومصالحة. عدة أزمات خانقة تفاقمت واستحكمت حلقاتها على المستويات التعليمية، والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والإبلاغية، والتداولية؛ بسبب انتهاك قوانين الخطاب، وعدم مراعاة مقامات التواصل وسننه ومقتضياته، وهو ما خلق أزمة سوء فهم وفشلا في تبليغ المقاصد نتيجة الافتقار إلى أدوات الحوار وآدابه؛ من لغة، ومعجم، وأسلوب، وسياق تفاعلي وغيرها؛ هذا الواقع المعطّل استدعى مقاربة لسانية تداولية لكشف استراتيجيات التفاعل اللفظي في خطاب الأزمات وكيفية استعادة سبل الحوار النافع وتدارك ما فشل في حلّه المتدخلون والوسطاء، من أجل تهدئة التوتر في العلاقات البينية في المجتمع الإنساني وترسيخ لغة الحوار وتحقيق التوافق والتواؤم بين البشر.

الكلمات المفتاحية: التداولية، التفاعل اللفظي، الحوار، خطاب الأزمات.

Abstract:

Based on several applied models, this study attempts to dismantle the structure of verbal interaction in its types: dialogues, conversations, discussions, interviews, in imaginary models represented in Aisha Al-Basri's novel titled "Ka Jothatin fi riwayatin boulisyatin", and a realistic one that took place between participants in the period of horrific events of Corona (Covid19) that has spread all over the world and shocked the entities of peoples. Contemporary man must do his self-reviews; socially, scientifically, cognitively, religiously, and politicly. When dialogue was the reliance on facing those challenges imposed by reality, the crisis became complicated on the social, political, economic, and linguistic levels, because laws of discourse were violated and didn't consider the context of communication, which created a disruption in misunderstanding and a failure in education, because of the need of dialogue tools and etiquette of language, lexicon, style, and context, etc... This reality necessitated a pragmatic treatment, somehow it did this study, to restore what was lost and to remedy what the interventionists and mediators failed to solve the tension in the interrelationships in human society and further consolidate the language of dialogue, consensus, and harmony among human beings.

Keywords: Crisis discourse, Dialogue, Pragmatics, verbal interaction.

– المقدمة:

إنه لَمِن مَساوِئ الحوارِ أنْ يَنبِسَ الإنسانُ بِبِنْتِ شَفَةٍ فلا يُلقي لها بالا فَتَهوي به في قاعِ جهنّم[1] أو تعودُ عليه وَبالا، ذلك أنني – بعبارة كاثرين كربرات أوركيوني(Catherine Kerbrat-Orecchioni) –"حينما أتكلّمُ لا أَستطيعُ أبدًا أنْ أمْحوَ ما أقول، كما لا أستطيع أن أُلغيه، وإنما قصارى ما أستطيع فِعلَه أنْ أقولَ "ألغي، وأمحو، وأعدّل،" وباختصار فإني أتكلّم أيضا" (بارت 1999، ص115). إنّ طبيعة الحوار الطرازية (Prototypique) تستدعي أنْ يكتسيَ بعدًا محادثيًا فهو مُلقى في الهَواء على هيئةِ أقوالٍ متبادلةٍ يستحيلُ محوُها أو التراجعُ فيها، لا سِيما إذا التَقَطَها السامِعُ أو اللاقطُ الإلكتروني.

ويسوءُ الحوارُ عندما يَخيبُ أفقُ انتظارِ المتلقّي ويُفاجئُ تَوقعاته، ويَحيدُ به المتحاورُ عن سياقه وأغراضه نحو وجهة أخرى أو يخترقُ به منطقةً ليس للمحاور المشارك رغبة في وطئها بلسانه، لينحرفَ عن مقاصده وأغراضه، ويفقدَ وظيفته الحقيقية.

ولَعَلّ الناظرَ في معظمِ محاوراتِ العقدين الأولِ والثاني منَ القَرنِ الحادي والعشرين، الدائرةِ بينَ الشخصياتِ في المدونةِ الروائيةِ العربيةِ والجاريةِ على الألسنِ بين العامةِ والخاصةِ زمنَ الحروبِ والصراعاتِ والجوائحِ، المتمعّنَ في أدوارِها وخصائصِها الاجتماعيةِ، المكتوبةِ والمنقولةِ مِنْها على الشاشاتِ المرئيةِ، والدائرةِ في فضاءاتِ التواصلِ الاجتماعي وغَيرِها، لواقفٌ على إشكالاتٍ جوهريةٍ وأسئلةٍ وجيهةٍ تُداهمُ تفكيرَه وتَدعوه إلى تعميقِ النظرِ فيها وفضّ مغاليقِها، وأهمُّ تلكَ الأسئلةِ:

لماذا أصبح الحوار في أيامنا هذه هامشيا، وغيرَ مُجْدٍ، ومنافيا لروح العصر؟ لماذا يَخيبُ في معظم أحواله ويفشَل؟ وكيف يمكن إقامةَ حوارٍ فعّالٍ وخصبٍ ومسؤولٍ، بعيدا عن التسرعِ، والتوترِ، والتهورِ، ومجاوزةِ التشنجِ وتعكيرِ أجواءِ التفاعلِ اللفظي والمسارعة إلى تأجيج روح الصراع بين البشر؟ وما هي الحلول والاستراتيجيات الناجعة للمشاركة في محاورة ناجحة وبنّاءة؟

عدة أسئلة ملحّة تتبادر إلى الذهنِ يُراد من طرحها إماطة اللّثام على واقع التفاعل اللفظي في المجتمع العربي وفي نماذج منتخبة من المجتمعات الغربية من خلال مدارسة طرازات معينة من عائلة التفاعل اللفظي(famille de l'interactions verbales)، وفق عبارةِ أريكيوني،

(*) جاء في الحديث النبوي الشريف عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:"إِنَّ الْعَبْد لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمةِ مَا يَتَبَيَّنُ فيهَا، يَزِلُّ بِهَا إِلَى النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بيْنَ المشْرِقِ والمغْرِبِ" متفقٌ عليهِ. (صحيح البخاري. الرقم (6478) باب حفظ اللسان)

IJSR, VSRP Publishing, UK ISSN 2755-3418 (Online)
Website: https://ijsr.vsrp.co.uk

ومعالجة مدى تعثّرها أو فَشَلها في كنفِ الحياةِ الاجتماعيةِ والثقافية، والنظر في استراتيجياته وآفاقها وحلولها الممكنة، وفق مقاربة تداولية من شأنها أن ترسّخ ثقافة الحوار في مثل هذه الأزماتِ الخانقةِ التي تُستَلبُ فيها حياة الإنسان وتُضيع بَوصَلَتُه.

1- أنماط التفاعل الحواري ومقامات التلفظ زمن الجائحة:

استفاقَ مُعَمّرو هذا العالم على صدمةِ العشريةِ الثانيةِ من القرنِ الحادي والعشرين بأَحْداثها المروّعة التي هزّت كيانات الشعوبِ وحرّكت ضمائرَهم، إذْ وصل الموتُ إلى مضاجعهم على غفلةٍ منهم، ليتأكّد ما للأوبئة والجوائح من تداعيات وآثار أشدّ فظاعة ودمارا من الحروب، إذ خلط وباء كورونا الأوراق دافعا الإنسان المعاصر إلى مراجعة حساباته علميا ومعرفيا واجتماعيا ودبلوماسيا، بعد أن قُضي الأمر وفُرِضت العُزلة وأُمر الناسُ باتخاذ تدابير الحماية من العدوى لتنأى البشرية بنفسها عن الهلاك، ولم يبقَ سوى التواصل من بعيد بديلا ممكنًا. وأمام هذا الواقع تصدّر الحوار المتخيل المشهد الروائي العربي مستلهما مرجعه من الواقع العربي والعالمي لينقلَ معاناةَ الإنسان بأسلوبٍ مختلفٍ عن أشكالِ التفاعلاتِ الاجتماعيةِ المألوفةِ.

والحوار الروائي، بوصفه مكوّنا رئيسا من مكونات رواية "كجثة في رواية بوليسية" للكاتبة المغربية عائشة البصري، ظفر بسمات أسلوبية وبنائية مخصوصة جعلته يراوح بين الحقيقة والخيال والواقع والمستحيل؛ إذ يدور بين الكاتبة وهي الراوية والشخصية المحورية والجثة التي توفيت ثم أعيدت عام 2010 للحياة من جديد، والمقرّر العسكريّ المكلّفُ بكتابةِ تقريرٍ عنِ الشخصيةِ/الجثةِ منذ ذلكَ الوقتِ حتى زمن الكتابة (عام 2020)، عبر انتزاع اعترافاتها عنوة.

لقد شكّل الحوار في الرواية هيكلها محتويا السرد والوصف الحجاج معبرا عن أزمة في التواصل كاشفا أسرار الشخصيات وصفاتهم، بينما بدتْ سائرُ أنماطِ التفاعل اللفظي في الواقع جارية على علاتها نفعية في غاياتها بيّنة أهدافها. وعلى الرغم من ذلك فإنّه لا مفرّ للإنسان من الانخراط في الحوار؛ فهو المعوَّل عليه لمواجه تلك التحديات التي فرضها الوباء وما خلّفه من أزمة تفاعل لفظي، إذ غدا ضرورة ملحّة بعد أن كان اختيارا، وحقيقة لا غنى عنها لاستعادة ما فُقد وتدارك ما فَشل في حلّه المتدخّلون والوسطاء من أهل الحّل والعقد، لذلك اتخذت الأزمة أشكالا متنوعة، فهي:

- أزمة تفاعل لفظي وانتهاك لقوانين الخطاب وعدم مراعاة مقامات التواصل.

– أزمة نفسية بسبب سوء الفهم والفشل في تبليغ المقاصد.

– أزمة افتقار إلى أدوات الحوار والتأدب بآدابه؛ من لغة؛ ومعجم؛ وأسلوب وغيرها.

– أزمة تحصيل علمي أدى إلى تراجع في المستوى التعليمي وإلى التأخّر الدراسي.

– أزمة مثقفين عاجزين عن تقديم الحلول المجدية لجميع هذه التداعيات والآثار المترتبة عن الصدمة الوبائية.

هذه الأوضاع كان لها دور بارز في توتّر العلاقات البينية في المجتمع الإنساني، ومما زاد الطين بلة ما آل إليه التفاعل اللفظي عن بعد من انحرافات في الفهم وخطأ في التأويل.

ولما كان الحوار يمثّل جسرا للتفاعل قائما على "التأثر والتأثير بين مرسلٍ ومتلقٍ في حالةِ حضورٍ وغيابٍ باستعمالِ الأدلّةِ اللغويةِ، مطابقا لمقتضى الحال" (خطّابي1991، ص129)، كان لا بدّ له أن يتشكّل وفق سياقات متنوعة فإما هو متخيّل خاضع لشروط التجريبِ والصنعةِ الفنيةِ، أو هو واقعي جارٍ بين المتخاطبين مشافهةً مباشرةً أو نقلا قبلَ أنْ يقتصرَ على وسائلِ التواصلِ الحديثةِ وتقنياتها في مقاماتٍ افتراضيةٍ تتفاوت فيها جودةُ التبليغِ ومنازلِ الفهمِ والتأويلِ، وتتنوع أنماطه واستراتيجياته وأهدافه.

لقد أفصحَ طه عبد الرحمن عن الحقيقة التداولية الكبرى التي مَفادُها أنّه "لا كلام إلا بين اثنين ولو كان كلامَ المرْءِ مع نفسه، ولا اثنين إلا عارضٌ ومعترضٌ، ولا عارضَ إلا بدليلٍ، ولا معترضَ إلا لطلبِ الصوابِ، ولا طلبَ للصواب إلا بجملةٍ من القواعد" (عبد الرحمن 2000، ص93). إنَّ تَداوليّة الحوارِ قائمةٌ في الأقوالِ المتبادلَةِ بينَ المتكلمينَ في مقامٍ معلومٍ أخذًا وردًا، مفهومٌ لمْ يحدْ فيه –عبد الرحمن– على حدِّ الحوارِ التفاعلي بوصفهِ **تبادلا للأقوال بينَ مشاركين اثنين أو أكثرَ في مقامٍ مُعينٍ وزمنٍ محّددٍ، وحول موضوعٍ محدّدٍ**، وإنَّما جاءَ شامِلا للمونولوج وجامعًا للمفاوضةِ بوصفها شكلا حِواريا قائمًا على الاعتراضِ، مغتنيا عن تناولِ الحوارِ في خصائصَه الفنيةِ وأساليبِهِ الإبلاغية.

وعلى الرغم من ذلك فإنّ منطق الحوار ما يزال قادرا على اختراق أنماط التفاعل الحواري الأخرى وأساليبه، من محادثة، ومفاوضة، ومرافعة، ومداولة، ومقابلة صحفية، وحديث طبّي، ومناقشة، وغيرها، لاتساع رؤية نظرية أفعال الكلامِ ومقاصد المتكلمين واختلافِ مقاماتِ تواصلِهم، مما يجعل أفعال تَلفظّهم يعزّ حَصْرها تماما كالعجز عن حصرِ مقاصد المتكلمين ونواياهم، وتحديدِ مدى صدقية أقوالهم. ويبقى، مع ذلك، تشخيص واقع الحوارات وأساليبها ومقاربة رؤاهم ومحاولة فهم مقاصدهم ماثِلا في أنماطِ الخطابِ المنجزة.

1.1– خصائص التبادلات في التفاعل الحواري واستراتيجياتها بين الواقع والمتخيل:

يعتبر جان ميشال آدام أن لفظتي "الحوار والمحادثة مترادفتين على الأغلب، عندما نتكلم على التحليل المحادثي بشكل عام. وأعتقد من الأجدر القول إنهما يمثلان وجهتي نظر حول الكلام المتبادل، فالمحادثة تحصل بالنظر إليها من وجهة نظر نفس– اجتماعية خطابية أو بوصفها نوعا من الخطاب شأنها شأن الحديث، والمقابلة الصحفية، والمحادثة الهاتفية إلخ. إنّ الحوار ليس شيئا آخر سوى وحدة تركيبية نصية (شفوية أو مكتوبة)"(Adam 2001, P.148) .

ويتمثّلُ الأساس الذي يقوم عليه الحوار في اقترانه شرطيا بوجود الإنسان وتجذره في محيطه الاجتماعي، لذلك يعودُ بنا الحوار "إلى الأصل، وهذه الحقيقة الأصلية هي أنَّ الإنسانَ ليسَ مفردًا بل هو جمعٌ، هو "ذاتٌ" و"غيرٌ" في الآن نفسه[..] فبقدرِ ما أمارسُ قُدرتي الحواريةَ معَ الآخرين الذين هم خارجَ ذاتي، فإنّني أتعرّفُ، في الحقيقة، على "الآخرية" أو قلْ "الغيرية" الموجودة في هذه الذات"(عبد الرحمن 2000، ص29)، إذ يعيش الآخر فينا حيّا مستحضرا في الذهن أو مفقودا أو غائبا فنخاطبه ونُسارُّهُ ونُناجيه من منطلق معرفتنا له ولأنفسنا.

إن الحوار سواء كان داخليا ذاتيا (Monologue) أو ثنائيا (Dilogue) أو ثلاثيا (Trilogue) أو متعدد الأطراف (Polylogue)، لا يأبى إلا أن يكون منشطرا إلى مداخلات وردود، يتحقق بها التفاعل في مفهومه الضيق والعام (الجزيري 2011، ص39). ويتمثل التفاعل اللفظي "في استمرار "أدوار الكلام" التي تخضع إلى نظام التداول في الكلام وإلى قواعد الانسجام الداخلي (الاتّساق) أيضا" (Kerbrat- Orecchioni 1998, P.193) بين أفعال اللغة وهي النواة الأولى لكل مداخلة أو ردّ أو مداخلة مرسلة من دون ردٍّ.

ويسمّى ردُّ الفعل فعلا اعتراضيا لأنه "فعل إدباري وليس فعلا إقباليا" (عبد الرحمن 2000، ص38)، وهذا مع اصطلحت عليه كربرات أوركيوني بالرد (Replique) وهو تبادل إرجاعي وإدباري يبنى على التدخل الابتدائي والإقبالي ويتفاعل معه. وغالبا ما تكون الردود الإدبارية انفعالية وانسحابية. من هنا يمكن حصر أهم استراتيجيات الحوار من خلال طبيعة التبادلات (Echanges) بين المتحاورين إقبالا على التلفظ أو إدبارا أو مداخلة (Intervention) وردًّا (Replique).

IJSR, VSRP Publishing, UK ISSN 2755-3418 (Online)
Website: https://ijsr.vsrp.co.uk

2.1- تداولية الحوار واستراتيجيات التفاعل اللفظي:

إن المتأمل في روافدِ التداوليةِ وعمقِها الفلسفي التحليليّ يلاحظُ أنّ اللسانيين والنقادَ والمهتمين باللغة وقضاياها، لم يثنِهم الانبهار بها وانتقادها لاكتساحِها حُقولا معرفية متعددة كعلوم الاتصال، وعلم النفس المعرفي، ونظرياتِ التلفظِ، وتحليلِ الخطابِ، ونظريةِ البلاغةِ، والحجاج، والسيميائيات. فمن الفلسفة التحليلية تولّدت نظرية أفعال الكلام (أوستين، وسورل، وغرايس) والتي اهتمت بمسألة الإنجازية، وأفعال القول، وقوة التأثير بالقول، واستعمال اللغة في مقامها، ومنها ظهرت التداولية العامة، وتداولية الخطاب (فان ديك) ذات البعد التطبيقي الموجه إلى النصوص المنتجة، والتداولية المدمجة في اللسانيات (يمثلها ديكرو وأنسكمبر) ويتمثل دورها في طرح مسائل الاقتضاء وفعل الحجاج وقوانين الخطاب، فضلا عن إضافة بول غرايس البليغة لمسألة الاستلزام الحواري. ثم توسعت التداولية العرفانية لتولي عناية بالمسارات الاستدلالية، وترسّخ أسس نظرية المناسبة على أيدي سبربر وولسن، كما أرست عالمة اللسانيات الفرنسية أوريكيوني دعائم التداولية التفاعلية.

لذلك اتّجه التداوليون نحو دراسات بنية المحادثات فوضعوا لها منطقا ومبادئ واستراتيجيات، لدراسة أنماط التفاعل اللفظي واستراتيجياته، ومحاولة الإجابة عن سؤالين مهمين هما ماذا قيل؟ (Dictum) وكيف قيل؟(Sarfati 1997, P.21) (Modus)، وهو ما يحيل على نظرية الإنجاز لدى أوستين وتلميذه سورل واهتمامها بمسائل الصدق والكذب ومقاصد المتكلمين.

إن موضوع التداولية ليس اللفظ أو الجملة وإنما هو التلفظ والقول الدائر في الحوارات ومختلف التفاعلات الخطابية، فهي علم معنيّ بدارسة اللغة في الاستعمال في مقامات تلفظ محدّدة. ومثلما كانت المحادثات موضوعا للتداولية، فإن التفاعل الحواري هو موضوعها، إذ إنّ دراسة الحوار استفادت من دراسة بنية المحادثة في شكلها الهرمي الذي حددته سلفي دورير (الجزيري 2011، ص66). وقد توصلت دورير إلى أنماط مختلفة من التبادلات التي يتألف منها الحوار وأهمها التبادل التعليمي، والتبادل الجدلي، والتبادل السجالي.

أ- التبادل التعليمي:

ورد في كتاب "الحوار في الخطاب" (الجزيري 2011، ص200-208)، أن استراتيجية التفاعل التعليمي في الحوار لها غاية نفعية، فهي تعالج مواضيع متنوعة منها الإخبار عبر العرض، والوصف، ونقل المعلومات، وتبادل الآراء بين طرفين أو أكثر، وتتفق في مجملها مع الأهداف التي يرمي إليها قانون الإخبار. وقد جاءت التبادلات التعليمية في الرواية لتؤطر الأحداث المروية والأقوال، فمنذ بداية الفصل الأول منها بادر المقرر بالتعريف بنفسه:

IJSR, VSRP Publishing, UK ISSN 2755-3418 (Online)
Website: https://ijsr.vsrp.co.uk

"– مرحبا أخيرا وصلتِ. منذ عشر سنوات ونحن في انتظار عودتك.

صوت كردّ الصدى يأتي من بعيد.

حملقتُ في ظلال وجه غريب" ص4

إنّه المقرّر العسكري، كما رأته الجثة، معه ستواجه مصيرا مجهولا؛ مقرر قاس بدرجة عقيد ترافقه مساعدته التي لا تعرف الشفقة إلى قلبيها سبيلا، فيدور بينهم حوار من أجل انتزاع الاعتراف من الجثة عمّا ارتكبته من أفعال قبل موتها، وهي تتردد بين الحياة والموت الثاني، هذا الحوار الذي طغى على أحداث الرواية وشكّل عمودها الفقري للرواية، لم يسلم في مجمله من البتر والانتقاء والتجزئة.

" قدّم الرجل نفسه:

أنا المقرر وهذه مساعدتي"ص5

وإذا سلمت المحاورة المنظمة المتساوية في المداخلات والردود من البتر، فإنها لا يمكن أن تخرج عن البنية الثلاثية المتداولة: تبادل افتتاح، وتبادلات جوهرية تمثل جسد الحوار، وتبادل ختامي ينتهي به الحوار. وغالبا ما تتشابه التبادلات الافتتاحية والختامية بين المتدخلين لطابعها الطقوسي، فهي "كليشيهات" مكررة يردّدها عامة الناس ويتداولونها بينهم دون ملل. أما جوهر الحوار فيختلف باختلاف الموضوع والهدف وطريقة العرض، فهو إما خبري، أو إنشائي، أو فكري، أو اجتماعي، أو علمي..

ومن الحوارات التعليمية ما يدور على وسائل التواصل الاجتماعي كالواتس آب، والتويتر، والأنستغرام، والفيس بوك، والمسنجر، والتليغرام، والسناب شات وغيرها، من حوارات مباشرة، ومحادثات، ومفاوضات، وندوات علمية، ومناقشات، ومحاضرات في قاعات الدرس وفي قاعات الاجتماعات، وعند التجمعات المهنية، والأنشطة التعاونية المباشرة، فضلا عما تؤديه الهواتف الجوالة والصالونات الفكرية والأدبية، والتطبيقات والمنصات التعليمية الحديثة مثل "زووم"، و"غوغل كلاس"، و"تيمس"، و"غوغل ميت"، و"ويب إكس" وغيرها، من أدوار ذات شأن كبير، حلّت محلّ الحوار المباشر في مناسبات كثيرة، منها جائحة كورونا، وحقّقت منجزات ما كان يحلم بها الإنسان قبل اكتشافه تلك الوسائل التطبيقات.

ب–التبادل السجالي:

IJSR, VSRP Publishing, UK ISSN 2755-3418 (Online)
Website: https://ijsr.vsrp.co.uk

غالبا ما ينشأ هذا التبادل بين أطراف متساوية في الرتب اجتماعيا، يدّعي كل طرف من المتساجلين معرفة الحقيقة وينزعها عن الآخر، ويستمرّ السجال دون الوصول إلى اقتناع، وقد ينتهي بالسباب والتراشق بالكلام الجارح. وتقع المواجهة بين طرفين متضادين يهاجم أحدهما الآخر، ويلقي عليه اللوم والتهم جزافا.

وقد يتعدّد المتساجلون في حضور متواطئ يعمل على إيقاد فتيل النزاع. لذلك غالبا ما يستدعي الخطاب السجالي ثلاثة أطراف؛ محاور سجالي يهدف إلى تشويه سمعة شخص ما في حضرة متلق معين يسعى إلى أن يكون متواطئا مع أحد الطرفين.

ففي رواية عائشة البصري ينشب السجال والجدال (Polémique)بين الجثة والمساعدة والمقرّر عندما تتهمها بالجبن وعدم الاعتراف بالخطيئة الكبرى؛ قال المقرّر: "**أنت ارتكبت أفظع خطيئة، وهبك الله حياة فضيّعتها، ثم أهداك أخرى كعمر مضاف، فضيعته كذلك.. الله لا يحب من يضيع هداياه**" (ص.115)، ويشتدّ السجال بين المقرر والمساعدة عندما تتهمه بالتعاطف مع الجثة وتصديقه لاعترافاتها، فتلتفت إلى الجثة قائلة" **ما هذا الجبن؟ أليس ليديك القليل من الشجاعة لتعترفي صراحة ودون استعارات أنك نادمة على الطريقة التي أدرت بها دفة حياتك؟**"(ص.119).

وتمثل التبادلات السجالية أدنى مستويات التحاور لأنها تهدف إلى المنافسة وتحقيق الغلبة، فهي كلام متهافت، وصيغة من صيغ المحادثات اليومية تدور بين عامة الناس في مجتمعات مختلفة وبين فئات متدنية ثقافيا وتعليميا؛ لذلك يمكن أن تتضمن التبادلات السجالية فلتات لسان أو كلام نابٍ أو مستنكر من أحد الطرفين أو كليهما، وغالب ما لا تكون تلك الهفوات وليدة المصادفة بل هي أفعال نفسية جدية لها مغزاها تكون ناجمة عن تظافر أو تعارض قصدين (عزّت، 1973، ص61)، كما تنشأ محاولة فهم مقاصد المتكلمين في كثير من التبادلات من بيان حقيقة تلك الهفوات ومقصدها وتمييز مستوى الهجنة في لغة ذلك المجتمع ودورها في توجيه الأقوال وتأويلها.

ت–التبادل الجدلي:

يتألفُ الحوارُ الجدلي على أدنى تقديرٍ منْ مداخلةٍ وردٍّ، أي من تبادلٍ. ويستوجبُ تبادلُ الملفوظِ بين طرفين متعارضين الجدلَ في الفكر والرأي والأيديولوجيا. ويعتبر الحوار الجدلي استراتيجيا قائمة على أطروحتين متناقضتين، أطروحة ونقيض أطروحة، يتبناهما شخصان وكل يدافع

عن رأيه ويقدم حججه المدعمة له ليرد بها عن حجج الآخر. كما تكون المداخلات في الحوار الجدلي محدودة الطول، وغالبا ما تنتهي بين المتجادلين إلى اتفاق قد تتطابق فيه وجهات النظر وقد تنتهي إلى اتفاق على الاختلاف بينهما.

وكثيرا ما تدور مثل هذه الحوارات على شاشات التلفاز بين ممثلي الأحزاب والجمعيات والمذاهب والمنظمات، وغالبا ما تكون موضوعاتها سياسية، أو دينية، أو اقتصادية، أو اجتماعية تعبر عن أيديولوجيات أصحابها وانتماءاتهم ومواقفهم، وبصرف النظر عما يرفع من شعارات أو يُتبنى من مقولات ومواقف فإن الحوار الجدلي يمثل الأساس الفلسفي لأي معرفة، والباعث الرئيس لأي وعي لدى الأفراد والجماعات.

ويحدث أن تتخذ بعض القضايا الاجتماعية أبعادا سياسية كقضية المساواة بين الرجل والمرأة، أو اضطهاد المجتمعات العربية للمرأة والنظرة القاصرة لها؛ وهو ما عبرت عنه الجثة في سياق حديثها للمقرر عن مبررات الحزن الذي طبع كتاباتها الروائية: "**وضعي كامرأة عربية لم يساعدني كثيرا، بل عمّق الهوة بيني وبين الفرح، وتّر علاقتي أكثر بالعالم.. كلّما حاولت أن أكتب فرحا وحبّا سعيدا تتداخل الأقدار لتضع حاجزا بين الشخصيات وبين السعادة.. ما ذنبي أنا، إن كانت كل شخصياتي الروائية بمصائر محطمة**" (ص94-95).

ث- التبادل الإلزامي:

يشير طه عبد الرحمن إلى أن مراتب الكلام تخضع إلى حدّ "العرض" وهو "أن ينفرد العارض ببناء معرفة نظرية، سالكا في هذا البناء طرقا مخصوصة يعتقد أنها ملزمة للمعروض عليه" (عبد الرحمن2000، ص38) إذ يقيم أدلته ليلزم بها الآخر لتصديق عرضه. ويتنزل الحوار الإلزامي ضمن هذا النمط في التفاعل.

ويقوم التفاعل الإلزامي على بنية من التبادلات ترجّح فيها كفة الكلام لصالح الآمر الناهي، الموجه القائد، وتكون ملزمة للمحاور الأدنى درجة، وهي تبادلات تكاد تخلو من استعراض الأدلة والحجج لطابعها الإجباري غير القابل للرفض أو النقض أو التنفيذ، إذ إنّ المتلفظ (أ) لا يمكنه أن يوجه أمرا إلى المتلقي (ب) إلا إذا كان الطرف الثاني في رتبة أدنى من الأول، أي أن يكون(أ) مصنّفا أعلى من (ب)؛ فوفق المثال الذي أورده بنفينست يجب أن تكون رئيسا للجلسة حتى يجوز لك القول: "أعلن عن افتتاح الجلسة" (الجزيري 2011، ص205).

وسواء كان الحوار يديره ذو مرتبة عليا أو يشارك فيه فإن المقاصد التي يبلغها تحظى إما بالإذعان والقبول أو بالرفض غير الصريح. وعلى الرغم من ذلك فإن الحوار الحقيقي لا يكون مبلغا مقاصده إلا إذا تلفظ به المتحاورون بلغة يفهمها المشاركون المترفّعون فوق خلافاتهم من

أجل بلوغ مقام التوافق والتفاهم، عندئذ يتألف الحوار من تبادلات منظمة في متواليات يتفاعل فيها المتحاورون، فتكون سليمة المبنى واضحة المعنى والمقصد، إلا إذا ما طرأ مثير أو ظهر عائق فإنها تصبح منهوكة أو مبتورة أو مقطوعة تشي بخروجها عن منطق التبادل ومقتضياته.

وغالبا ما يتسم الحوار الروائي بالبتر والقطع والنقل والإلزام ففي رواية "كجثة في رواية بوليسية" يطغى الطابع الإلزامي على الحوار، ذلك أنّ دور المقرر يتمثل في انتزاع أقوال الجثة وتهديدها للحصول على أكبر قدر من المعلومات؛ "–تقدم الرجل نحوي خطوة، تحسس سلاحا مثبتا بجذعه:

–أنت هنا في مكان محايد خارج الحياة وخارج الموت.

جسدك مغلق وروحك سجينة إلى حين الخلاص، خلاصك إجازة التقرير... " (ص.6،7)

وعندما تلزم الجثة الصمت ولا يعجب المقرر ما تذكرته من أحداث يهدّدها بحقنة كبيرة، وطلب منها الحديث عن مشاعرها لأن ذلك الأمر مهمّ بالنسبة إليه. (ص.39)

ويبدو من خلال هذا التفسير لمبرر وجود المقرّر مع الجثة "الاستثنائية" التي جعلت منها الكاتبة راوية على قيد الحياة وشخصية ملقاة على سرير الموت في إحدى المستشفيات، هو الرغبة في معرفة ما جرى من أحداث منذ اختفائها منذ 6 فبراير 2010 تاريخ أخذ الشخصية لتذكرة وحقيبة سفر إلى نيكاراغوا عبر مدريد حتى زمن التحقيق؛ وهو الحدث الوحيد الذي استرجعته الجثة حتى منتصف الرواية. وقد أعلنت الراوِية على لسان المقرّر في صفحات متقدمة أنّ الميتة الأولى كانت قبل سنة 2010 وكانت إثر عملية ولادة (ص92)، وقد أضفت

على المقرر هالة أسطورية فقدمته ومساعدته تلميحا على هيئة منكر ونكير والمقام مقام سؤال الملكين(ص127). قال المقرر:" **أنتم، بني البشر، تقضون العمر في التجول بين الموت والحياة، دون أن تدركوا ذلك**.. " (ص.16)

وتظهر الشخصية في موقف من الخوف والهلع مستنكرة وجودها في ذلك المكان وأمام ذاك المقرر وهي عاجزة عن استرجاع ذكرياتها: "**أين كنت؟ ما هذا الضباب الذي يحجب كل شيء؟**"(ص.16)

IJSR, VSRP Publishing, UK ISSN 2755-3418 (Online)
Website: https://ijsr.vsrp.co.uk

وتجد لنسيانها مبررا في حكمة الكاتب بوخيس التي تقول: "**إن النسيان هو الانتقام الوحيد والغفران الوحيد**"(ص.17) فتعلّل النفس لتنسى كثيرا من الذكريات المؤلمة التي مرّت بها، لكنها تكتشف بعدئذ أنها قد أغلقت ذاكرتها كلها، بينما يفاجئها المحاور المقرر بمعرفته المسبقة كل أفكارها وما تخفيه من أسرار، دون أن يتخلى عن مساعدتها على تذكر ما نسيته أحيانا وتوجيه الحوار الوجهة التي يريدها:

"–**نحن نعرف حياتك قبل السادس من فبراير 2010 قد دوّنا تفاصيلها في موتك الأول**..." (ص.15)، وستكون الميتة هذه المرة الثانية "**بعد التأكد من جهوزيتك للموت**". (ص.15)

3.1– مراتب المشاركين في الحوار ومقاماتهم:

يرتبط مفهوم المقام بمعنى الملفوظات في سياقها النصي الداخلي والخارجي، فهو عنصر دلالي "تداولي" بكل ما يشتمل عليه من مكونات كالزمان والمكان والمتكلم والمخاطب وأحوالهما وما يربط بينهما من علاقات وما يتصل بهما من أوضاع ومواقع (Moeshler 1985, P.231)، علاوة على شرط الكفاية، الذي ألحقه محمد نظيف بتلك المكونات، لتسير المحاورة على الوجه الأكمل وتبلّغ المضامين الحوارية فـ"حضور الكفايات لدى أطراف الحوار يعطي دفعا لعملية التفاعل التواصلي يصل به إلى مستويات استدلالية معرفية لا مجال معها للرجوع إلى الوراء" (نظيف 2010، ص10). ويتحقّق هذا الشرط فيما جاء به الجاحظ على لسان بشر بن المعتمر من أن يعرف المتكّلم "أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك مقالا، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقار المستمعين على أقدار تلك الحالات"(ميلاد 2001، ص391).

ويتفق هذا المعنى الذي اصطلح عليه الجاحظ وعدد من العلماء العرب القدامى[2*] مع ما عبّر عنه جان روبرت فيرث (Firth) بسياق الحال (Context of situation) أو سياق الموقف، وهو ما يؤثر في المخاطبين من أوضاع خارجية وداخلية كالمكان والزمان والأجواء والأحوال النفسية، سلوك الشخصية من تأدب واحترام وسخرية وضحك وابتسامة ما لها من علامات غير لغوية من شأنها أن تساعد على نجاح المحاورة أو تدفع إلى فشلها.

IJSR, VSRP Publishing, UK ISSN 2755-3418 (Online)
Website: https://ijsr.vsrp.co.uk

ويمكن استخدم مفهوم الحال والمقام لتفسير "اختلاف الدلالات المخصوصة باختلاف المقامات والأحوال وانعكاس كل ذلك في الأبنية الإعرابية. فالاستفهام مثلا، وهو معنى نحوي، قد يُستخدم في مقام مناسبٍ لمعناه الوضعي، وقد يستخدم في مقام لا يناسب ذلك المعنى الأصلي، إذ يكون المتكلم عالما بما يستفهم عنه، فيفيد التوبيخ والتقرير"، وفق ما أورده (ميلاد 2001، ص402، 401)، وغيرها من أعمال اللغة كالتمني، والرجاء والالتماس والأمر والنهي...

ويؤثر سياق الحوار في مجرياته وفي طبيعة التفاعل بين المتحاورين، لذلك تنقسم سياقات التواصل بين القائلين إلى ثلاثة أنواع: السياق المرجعي، والسياق المقامي، والسياق التفاعلي. وإذا كان السياق المرجعي يتصل بتحديد العلاقة بين العلامات ومراجعها ليتمكن المتلقي من الوقوف على عناصر الحوار المرجعية، فإن سياق المقام يشكل جزءا من البواعث الاجتماعية الفاعلة في الخطاب الحواري، وهي بواعث تؤطر الحوار ليسير وفق حدود واضحة. أما السياق التفاعلي فيعين المتحاورين وموضوع الحوار، إذ يبين مدى إدراك الموضوع الحواري من طرف المتحاورين ومدى انسجامهم مع القضايا المطروحة فيه (نظيف 2010، ص. 10،11).

وغالبا ما تدور الحوارات في أجواء متقاربة من حيث رتب المتكلمين وطبقاتهم أو متباعدة، كما في الشكل البياني (1)، إذ يتراوح مقام التفاعل بين التفاوت من حيث الانسجام أو التنافر في المقامات، فيؤثر اختلال التبادلات أو انتظامها وفق تراتبية (Hierarchie) معينة في طبيعة سير الحوار ومآله.

الشكل (1)

IJSR, VSRP Publishing, UK ISSN 2755-3418 (Online)
Website: https://ijsr.vsrp.co.uk

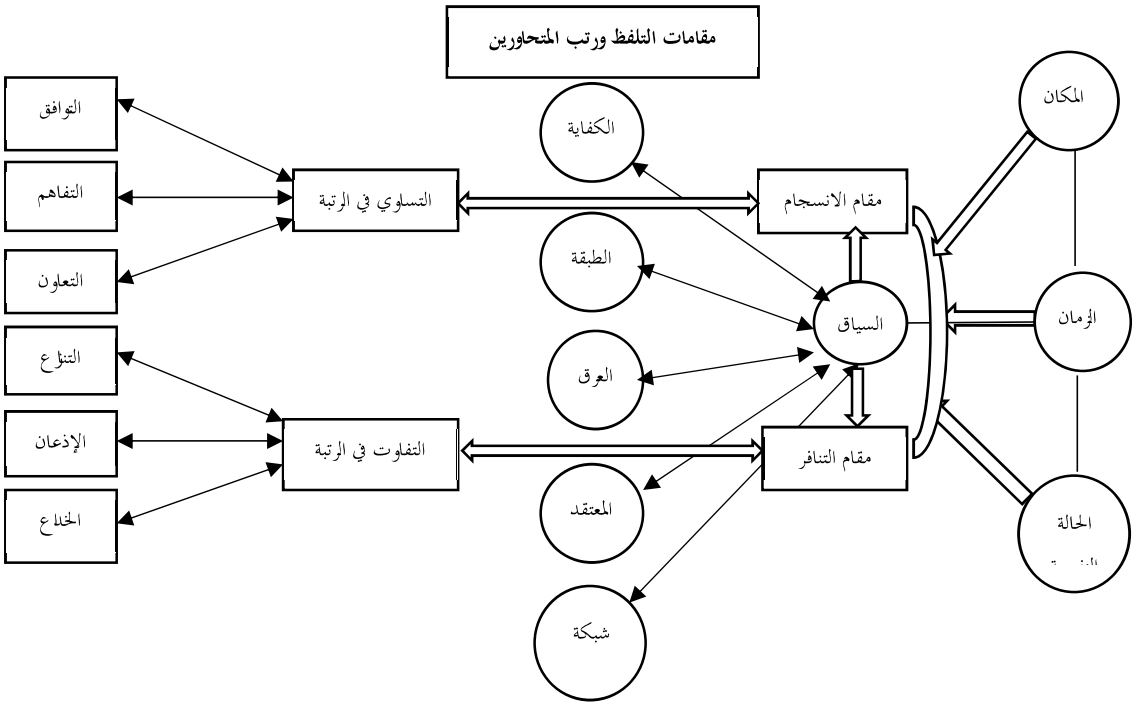

أ- مقام الانسجام بن المتحاورين في رتب متساوية:

يتنوع التفاعل في الحوار بتنوع تبادلاته ويخضع إلى استراتيجيات مختلفة تعمل على تجاوز مناطق التعثّر وتخطي الحواجز المانعة من التوصل إلى حلول لمشكلات الإنسان المعقدة. ولعل تحقق الفهم في الزمن المناسب مما يدفع بالمحاورة إلى الأمام، ليتسنى للطرفين الاستمرار في الردّ بعيدا عن أساليب المخالطة والخداع، أو سوء الفهم، أو الاتهام بالعجز عن التوافق والانسجام.

ويمثل الانسجام روح التفاعل في الحوار بين المشاركين وأصله. وهو ما يبدو بين متحاورين من تقارب وتفاهم، قد يشمل هذا المقام عدة طبقات أخرى متقاربة رتبيا يسهل فيها التواصل ويجرى الحوار في كنف التوافق والتفاهم والاحترام. لكن ذلك لا يمكن اتخاذها قاعدة بين المتحاورين فربَّ مُعيق بسيط يمكن أن يقلب أدوار الحوار وطباع المتحاورين وأساليبهم في الكلام.

IJSR, VSRP Publishing, UK ISSN 2755-3418 (Online)
Website: https://ijsr.vsrp.co.uk

وإذا كان مقام الانسجام في رواية "كجثة في رواية بوليسية" مغيبا لعدم وجود تساوٍ في الرتب بين الشخصيات، إلا أن الجانب الإخباري التعليمي لم ينقطع نهائيا وتمثله تلك اللازمة ''حوّل'' المؤطرة للأقوال والتعليمات والأخبار المنبعثة من مكبر الصوت وجهاز اللاسلكي، معلنة عن تطورات وتداعيات فيروس كورونا في العالم، فتنشر الخبر بعد تحيينه كلما طرأ جديد على الأحداث، وأول تلك العبارة ما يلي:

''جهاز اللاسلكي يبعث طقطقات وجملا متقطعة:

"...فيروس قاتل يجتاح الصين. حوِّل.. مدينة ووهان تحت الحجر الصحي. حوِّل.."''ص15

ولكن المقرر الذي يبدو غير مكترث بتلك الأصوات والأحداث، يزيد من قلق الجثة وتعجبها وتركيزه على الجثة تساءلت: ''هل حياتي مهمة إلى هذه الدرجة، كي تشغله عن أحداث عالمية مهمة؟

غلب عليّ الفضول والرغبة في النبش في المآسي، فسألت:

- ماذا يحدث في العالم؟

نهرني المقرر:

ماذا يهمك في ذلك؟ إنه ليس عالمك الآن..''ص78

كثيرا ما يلجأ كتاب الرواية في مقامات الغزل والعاطفة والتعبير عن الميولات إلى مقام الانسجام حتى وإن اختل عامل التساوي الرتبي؛ ويبدو أن الجثة فيما روته قبل موتها الأول كانت تعاني من الحرمان وقلة الاهتمام حتى أنها كانت تشكو من الحزن على ماضيها:

"**لاحظ الرجل شرودي:**

– سأحدد السؤال: هل كنت سعيدة بالعودة للحياة؟" (ص.30).

هذا السؤال سيكون له صدى لدى الشخصية لتروي لحظات الحرمان التي مرت بها.

IJSR, VSRP Publishing, UK
Website: https://ijsr.vsrp.co.uk
ISSN 2755-3418 (Online)

"تمنيت تلك الحكمة التي قالها "كلين ستود" لـ"مريل ستريبْ" في فيلم "على طريق ماديسون": "دعيني أعتني بحياتك" بدل أن يقول "أحبك" "(ص.33)

ويتسم الحوار، في مقام التساوي، بالمحافظة على مبدأ التعاون والإقناعية والاعتقادية؛ وهو ما يستدعيه التعاون مع الغير في طلب الحقائق والحلول وتحصيل المعارف واتخاذ القرارات (عبد الرحمن 2000، ص37)، وتسجيل الموافق الإيجابية. وتعتبر الإقناعية غاية التحاور ومقتضاه، يروم من خلالها المحاور مشاركة الغير اعتقاداته دون إكراه أو تعسف" تتبع في تحصيل غرضها سبلا استدلالية متنوعة تجرّ الغير جرا إلى الاقتناع برأي المحاور" (عبد الرحمن 2000، ص38).

أما مبدأ "الاعتقادية" فيقوم على أن يعتقد كل محاور بأن رأيه مقبول "وأن عناصر الدليل الذي أقامه هذا الغير عليه مقبولة، وأن تدليله بها مقبول بدوره" (عبد الرحمن 2000، ص38). وباختلال هذا المبدأ في حوار الشخصيات، كما في رواية عائشة البصري، يختل مبدأ التعاون، وتسود الفوضى وتهتز القناعات ولا يبقى من سبيل إلا ممارسة الترهيب والتعذيب لانتزاع الاعتراف الذي يرضي السلطة المهيمنة على الخطاب.

ب- **مقام التنافر بين الرتب العليا والدنيا:**

إذا كان الحوار التعليمي لا يواجه تنافرا بين أطرافه لوجود علاقة تعاقدية أو اتفاق مسبق بينهما حول طبيعة تلك العلاقة التفاعلية، فإن كثيرا من الرتب المتفاوتة تكون مثار شجار أو مدعاة لتعطل الحوار بسبب سوء الفهم أو ادعاء امتلاك الحقيقة أو حيازة معلومة ومن ثم يكون الخروج عن منطق الحوار.

ومن الملاحظ أنه في مقام التنافر لا يمكن للمتلفظ (أ) أن يوجه أمرا إلى المتقبل (ب) إلا إذا كان الثاني(ب) في مقام أدنى رتبة من (أ) أي أن يكون (أ) أعلى مقاما قياسا إلى (ب)، فالجندي لا يمكنه أن يوجه أمرا إلى الجنرال في الجيش مثلا، كما أن القول لا يكون ممكنا إلا إذا كان قولا مسموحا به «Le dire n'est faire que c'est un dire autorisé» لذلك فإن أي عملية خرق لهذا المبدأ تنتظرها عقوبة أو صراع ينتهي بالفشل الملحق بأحد الطرفين أو كليهما.(Ducrot 1980, P.293)

ومن المألوف في الحوارات بأنواعها أن "الإنسان المسيطر يتحدث أكثر من الطرف الثاني، بينما يظل الطرف الآخر الثانوي ينظر إلى وجه الطرف الأول أكثر مما يتحدث تمهيدا لانتقال تأثيره إليه. هذا لأن قوة فعالية من يجيد التحدّث، أو السياسي، أو المبشّر، تصل إلى مشاعر

الجماهير. وهذا ما نعنيه بالقول: «إن هذا الإنسان أو ذاك قد وضعهم في قبضة يده"، فالجذب العاطفي هو جوهر التأثير" (جولمان 2000، ص174). ويمثل صوت المقرر في رواية عائشة البصري رمزا للسلطة الدينية والعسكرية المالكة لحقّ الاستجواب وممارسة أساليب الضغط والتعذيب النفسي والجسدي على الجثث التي ترسل إليها.

"**أنتم، بني البشر، تقضون العمر في التجول بين الموت والحياة، دون أن تدركوا ذلك**.." (ص.16)

فتبدو الشخصية في حال من الخوف والهلع مستنكرة وجودها في ذلك المكان وأمام المقرر المرعب، بينما هي عاجزة عن استرجاع ذكرياتها. تساءلت الجثة:

"**أين كنت؟ ما هذا الضباب الذي يحجب كل شيء؟**"(ص.16).

وتظفر لنسيانها بمبرّر في حكمة الكاتب بوخيس التي تقول:

"**إن النسيان هو الانتقام الوحيد والغفران الوحيد**" (ص.17).

وقد يكون الصمت عاملا مساعدا على تصحيح مسار المحاورة فيعدّل الأمزجة، كما قد يكون مثيرا ضديا فيدفع الطرف الآخر إلى المناورة والتطاول، وكثيرا ما تتخذ مساعدا لإنهاء المحاورة، لذلك رأى برونو أننا "نقف في حالة الصمت التفاعلي (Interactif) على خاصيات متصلة بعلاقات تراتبية "السيد" و"المسود"، فالمبادرة بالكلام موكولة عادة للمسود الذي سوف يكون ببساطة مثالا للسقوط في صمت موقر حيث يمارس السيد مراقبة فعالة على ذلك الصمت"(Bruneau. 1973, P.10)

ولعل غطرسة بعض المتحاورين واحتكارهم للكلام بوصفة أداة تسلطية، تعكس عمق أزمة الحوار خاصة، وخيبة أنماط التفاعل اللفظي عامة؛ فهي بمثابة الوقود الذي تضرم نار الغضب والصراع الطبقي، وهو ما حصل بين المساعدة والجثة، فما إن نطق المقرر قائلا: ''إنّها تصلي لندعها تذهب.''ص124، حتى نشب الصراع بينهما بسبب اتهام المساعدة للمقرر بميولاته الجنسية، ثم جاء ردّ الجثة ليعدل من أوتار الصراع، ''.. قررت ألا أرحل قبل أن أصفي حساباتي مع هذه المرأة ''ص.129

فلأول مرة تستنكر الجثة تصريحات المساعدة وترد على تحاملها عليها قبل أن ترحل نهائيا عن هذا العالم.

2- أنماط التفاعل اللفظي وتأزّم الخطاب زمنَ الجائحة:

يتحقق التفاهم بين المتحاورين إذا ما "تقاسموا شفرة أو عدة شفرات فيما بينهم معنى ذلك أنّ أي معرفة يمكن أن تتضمّن ذلك الفهم، مثلما أن نجاح التبادل الخطابي يضمن تواصلا مجديا بين المشاركين" (Parret 2002, P.11). ولكن يعتقد باري يستدرك معتبرا أن هذه الفرضية لم يعد لها مصداقية اليوم، فلم يعد الفهم مشروطا بالمعرفة المشتركة للشفرة أو لعدة شفرات كي يتحقق نجاح المجابهة التفاعلية (Parret 2002, P.72).

ويتأزم الحوار عندما تتعثر خطوات التواصل الإيجابي بينهم لسبب من الأسباب. ومن أهم أسباب تأزم الحوار ما تتسم به العلاقات الاجتماعية قبل التحاور من تنافر وعدم انسجام، أو يطرأ في أثناء التفاعل من عوامل ومثيرات، فضلا عن خرق مبدأ التعاون، وسوء الفهم، وممارسة دكتاتورية التفاعل اللفظي الناتج عن اختلال مراتب المتكلمين.

٢.١-خرق قوانين الخطاب في المحاورات:

أ - مبدأ التعاون عند غرايس:

يرى غرايس (Paul Grice) أنّ المحادثة تنشأ نتيجة لجهود التعاون التي تنجز في أثناء التبادلات الكلامية لا سيما "عندما يتعرّف كلّ مشارك على هدف موجود أو مجموعة أهداف أو على الأقلّ على اتّجاه مقبول لديهم جميعاً" (Durrer 1999, P.98)، وأنه على المشاركين في المحادثة احترام هذا المبدأ حتّى يتيسّر فهم أقوالهم (Durrer 1999, P.98)، لهذا وضع غرايس في كتابه "منطق المحادثة" مفهوم الاستلزام الحواري القائم على مبدأ التعاون. وبناه على أربع قواعد إذا ما احترمها المشاركون، كانت له بمثابة المعايير والضوابط التي يتحقق على أساسها الحوار الناجح، وقد لخصتها سيلفي دورير بعد ذلك مدعمة إياها بهذه الشواهد التوضيحية:(Durrer 1999, P.99)

- قاعدة الكم (Quantité): أن تقدّم المعلومات بالقدر المطلوب ليس أكثر من ذلك ولا أقلّ.
- قاعدة النوع (Qualité): ألا تؤكّد ما تعتقد أنّه خاطئ.
- قاعدة الطريقة (Modalité): أن تتجنب الغموض وكن واضحا ومنهجياً.

IJSR, VSRP Publishing, UK ISSN 2755-3418 (Online)
Website: https://ijsr.vsrp.co.uk

- قاعدة العلاقة (Relation): أن تتكلّم في الوقت المناسب وليكُن الموضوع مناسبا.

وتعتقد دورير أنّ القاعدة الأخيرة لها وضع خاص، فهي تستطيع أن تحتوي المبادئ الثلاثة الباقية.

إنّ مقولات التحادث الأربع تنشأ وفق احترام مبدأ التعاون في أثناء إجراء المحادثة مثلما يفترض أن تتناسب مع الاتفاقات الحوارية والمونولوجية والبلاغية المعمول بها (إيلام 1992، ص267).

ويقوم مبدأ التعاون بين المتخاطبين "لتحقيق الهدف من حوارهم، على صِيغٍ محددة هي:

ليكن اندفاعك في الكلام على الوجه الذي يقتضيه الاتجاه المرسوم للحوار الذي اشتركت فيه.

والقواعد المشتقة منه موزعة إلى أربع أصناف:

ما يتعلق بكمّية الخبر وهي:

- لتكن إفادتك المخاطب على قدر حاجته.
- لا تجعل إفادتك تتعدى القدر المطلوب.

ومنها ما يرتبط بكيفية تقديم الخبر، هي:

- لا تقل ما تعلم كذبه.
- لا تقل ما ليست لك عليه بينة.

ومنها ما يرتبط بعلاقة الخبر بمقتضى الحال:

- ليناسب مقامك مقالك

ومنها ما يتعلق بجهة الخبر:

IJSR, VSRP Publishing, UK ISSN 2755-3418 (Online)
Website: https://ijsr.vsrp.co.uk

- لتحترز من الخفاء في التعبير.
- لتحترز من الاشتباه في اللفظ.
- لتتكلم بإيجاز.
- لترتب كلامك." (عبد الرحمن 2000، ص. 103، 104).

ويمكن للأطراف المشاركة في الحوار أو المحادثة ألا تحترم مبدأ التعاون فتخلَّ بإحدى قواعده، وهو ما يدفع المخاطَب إلى أن يصْرف كلامه إلى معنى ضمني يقتضيه المقام على وجه الاستلزام الحواري. كما أن اختراق بعض تلك القوانين لا يحول دون تحقيق مبدأ التعاون؛ فمن يكْذب أو يقدّم جوابا خاطئا استجابة لأمر ما فإنه قد يكون متعاونا مع مخاطبه الذي يحقّق استجابة معه (Durrer 1990, P.53). وكثيرا ما تحدث عملية اختراق هذه المبادئ إما عن طريق الثرثرة أو الإطناب في مقام غير مناسب وفق مصالحهم وانفعالاتهم ورغباتهم الحرة.

إن خرق قاعدة الاستلزامات الحوارية أو إبطالها ممكن حدوثه في التفاعل اللفظي لا سيما عندما تخطئ عملية الاستدلال التي تولد منها الاستلزام الخطابي "في هذا الإطار قد تفضي الاستلزامات الحوارية إلى أخطاء أو سوء فهم. وتمكن نظرية غرايس، في الآن ذاته، من تفسير نجاح التواصل (ولا سيما التواصل الضمني) أو إخفاقه" (روبول، وموشلير 2003، ص63). ويتجلى خرق مبدأ التعاون بوضوح في حوار الزوجين كالآتي:

"فريد: «هل أحضرت الملابس من محل التنظيف الجاف...؟" إنجريد: (في لهجة ساخرة) «هل أحضرت الملابس من محل التنظيف الجاف...؟ إذا لمْ لا تحضر أنت ملابسك الملعونة؟ هل أنا خادمتك؟". فريد: (بصعوبة) «إذا كنت خادمة – فعلى الأقل – كنت ستعرفين كيف تنظفين الملابس" (جولمان 2000، ص198).

إذا ما "سمعنا هذا الحوار في موقف كوميدي، ربما كان مسليا، لكن هذا الحوار المؤلم اللاذع بين الزوجين اللذين قد لا يكون مستغربا انفصالهما بالطلاق بعد سنوات قليلة من هذا الحوار (جولمان 2000، ص198) أو أنّ الأجواء تستمر مكهربة، حتى تنتهي بالتأزم.

إنّ هذا الحوار الذي اختل فيه مبدأ التعاون حدّ التوتر وتبادل التهم بالتقصير، كان من الأجدر أنْ تعدِل فيه الزوجة عن أسلوب السخرية والتهكم بعدم تكرار كلام الزوج وترك العبارات النابية، وبالتالي تلطيف الحوار باستخدام سجل كلام يعبرّ عن الاحترام، وهو ما يعرف بالذكاء العاطفي الذي تعقبه خسارة أو ندم.

إنّ آفة الحوار الغضبُ "ومفادها أن يقول أحد قولا أو يروي رأيا فيتصدى له الآخر، قائلا: "لا، رأيك غير صادق" والرأي الصواب هو كذا وكذا" (عبد الرحمن 2000، ص.30)، والحال أنّ عليه أن يستمع إلى الأدلّة أولا ثم يبطلها واحدا واحدا ثم يعرض رأيه النقيض، وهو ما لا يَحصلُ البَتَّة، لذلك لا بد من اتباع منطق الحوار أي ما أطلق عليه هابرماس صفة "العقلانية الحوارية" (عبد الرحمن 2000، ص.36).

إنّ غاية الحوار الأولى بلوغ المعنى المراد إلى ذهن المحاور وتحقق الفائدة والتفاعل وفق مقاصد المتكلم، ومبادئ التخاطب وقوانينه، وأهمها:

ب– قانون الإخبار (Informativité): يقصد به الإخبار بموضوع ما، ويعرف أيضا بمبدأ الإبلاغية وهو أحد مبادئ الغرايسية الجديدة التي يمثلها الفيلسوف الأمريكي جي أتلس (Jay Atlas) ويُتوقع بموجبه من المتكلم ألا يُخبر بأقل من المطلوب، وألا يقول أكثر من المطلوب ويُخوّل للمخاطَب أن يستدلَّ على أنَّ ما يقال بصورة عامة يُمثَّل بصورة نمطية" (هوانغ، 2020، ص. 334). لذلك لا يجب، وفقَ قانون الإخبار، التكلّم من أجل لا شيء والتفوّه بما يعرفه المتلفظ المشارك سلفا.. إلخ (مانغونو 2008، ص82)، فهو قانون ذو طابع لساني. وقد اقترح براون ويول موضوع التكلم (Speaking Topically) بديلا لقانون الوجاهة عند غرايس ومفاده أن يكون لكل متكلم في الخطاب موضوعه الخاص، ولكنّ موضوعه هذا يصبّ في الموضع العام للتخاطب أو "إطار الموضوع" (خطّابي 1991، ص.278).

ت–قانون الشمولية (Exhaustivité): ويقصد منه توفير معلومة دالة قصوى من شأنها أن تنال اهتمام المتلفظ المشارك (مانغونو 2008)، ص.84)، فـ"المثال الآتي "رأيت زيدا عشر مرات" يقتضي في نظر علماء المنطق أني "رأيته خمس مرات" وهو قول صحيح في حين أن القائل "رأيت زيدا خمس مرات" بعد أن رآه عشر مرات يفهم قوله على أنه نوع من الكذب" (الجزيري 2011، ص63)، فالمتكلم مطالب بتقديم كل ما يعرف من معلومات ليشبع انتظار المخاطب، وعدم إخفاء أي معلومة مهمة لديه.

ث– مبدأ النزاهة (Sincérité): صاغ سيرل هذا المبدأ واشترط "أن يلتزم المتكلم بأقواله فيصرح بما يفكر فيه دون أن يعلن عما لا يعتقد في صحته، ولا يأمر إلا بما يريد إنجازه، ولا يطلب إلا ما يرغب في معرفة الجواب عنه (Maingueneau 1990, P. 105). ويرتبط بالقصدية

لأن جملة مثل "أعد بأن" التي تتضمن فعل الوعد، يجب أن تقال في موقف جاد وتؤخذ على محمل الجدّ وليس في قصيدة أو في موقف هزلي، لأن الكلام التزامٌ وتعهدٌ (أوستين 2008، ص.20).

ج– قاعدة الوجاهة (Relevance): ارتبطت قاعدة الوجاهة بتحليل الخطاب، وتطلق على الملفوظ الذي يناسب السياق إذ جعلها غرايس إحدى حكم المحادثة. لذلك عندما بلور سبيربر وولسن نظرية الاتصال أوليا الوجاهة الصدارة في التبليغ. واعتبرا التبليغ هو الذي يسعى إلى تغيير سياق التلفظ، فالملفوظ الذي يوفر معلومة مرتبطة بالسياق ولكن سبق اكتسابها، لن تكون لها أية وجاهة (مانغونو 2008، ص95)، وذلك لأنّ "الملفوظ الذي هو ليس حصيفا(وجيها) تماما قد يظهر حصيفا إن هو مجعول لاستنباط قول مضمر sous-entendu من المتلفظ المشارك" (مانغونو 2008، ص95).

ح– مبدأ المناسبة/المواءمة: (Pertinence): وجوهر هذا المبدأ مراعاة القاعدة البلاغية "لكل مقام مقال"، واحترام حال المحاور وعدم إرهاقه بتفاصيل زائدة لكي يتحقق التفاعل الحقيقي المجْدي. وتخضع الاستلزامات الخطابية ومنها الاستلزامات الحوارية إلى قاعدة العلاقة التي تحتاج إلى مبدا المناسبة بين الأقوال عند الحديث في موضوع ما، ويمثل مبدأ المناسبة كلّ ما بقي لدى سبربر وولسن من قواعد المحادثة عند غرايس (روبول وموشلير 2003، ص81–86)، إذ تطور هذا المبدأ ولم يعد مجرد قانون يلتزم بضوابط خاصة، وإنما عرفت نظرية المناسبة لدى سبيربر وولسن بما بعد الغرايسية (Post-Gricéenne) التداولية (Jacques 2006, P.1).

إن مبادئ الحوار واستراتيجياته تنطبق على مختلف أنواع الحوار المنتج بين المنتمين إلى نفس العرق أو العقيدة أو مع الآخر المختلف عرقا ودينا، أو فكرا وأيديولوجيا، فالتحاور مع الآخر قوامه الاحترام والخُلق الكريم والسماحة والرفق، وقبل ذلك كله امتلاك أداة التواصل المناسبة لإقامة حوار خصب ومثمر مع الآخر وهو ما تبنى على أساسه العلاقات وطيدة وتستمر.

وعليه لا بد أن يمتلك المحاور آليات الاستدلال بقدر رغبته في إفحام غيره فـ"بقدر ما تستطيع تملك آليات الاستدلال فإنك تتملك سير الحوار" (عبد الرحمن 2000، ص.29)، ليتحقق إقناع المحاور والتأثير فيه بالحجج والأدلة والبراهين.

3.2- انحراف القول ضمنيا في الحوار التفاعلي:

تتعلق مسألة ضمنيات القول (Implicite) بالمضمر من الكلام وهو ما لا يفهم معناه من ظاهر القول، وإنما مما خفي منه، وينقسم إلى ثلاثة أنواع: الاقتضاء، والمهمت، والاستلزام.

الاقتضاء: يعرّف الاقتضاء، كما اقترحه ديكرو (Ducrot)، بأنه المضمون الذي تبلغه الجملة بكيفية غير صريحة، وهو ماثل في الملفوظ. ومن الاقتضاء ما نفهمه ويكون سابقا عن معنى جملة مثل "انتهت الحرب في لبنان قبل سنوات". هذه الجملة تقتضي أن الحرب كانت مندلعة في لبنان في زمن لم يحدّده المتكلم، وهذا المعنى جاء بعد أن وضعت الحرب أوزارها، فهو من مقتضياتها الممكنة.

وعلى الرغم من ترجمة كلمة (Présupposition) بمقتضى مسبق أو اقتضاء، فإن المراد واحد وهو تأويل الأقوال عن طريق الاستدلال من خلال ما تحيل عليه الجملة من معان بطريقة غير مباشرة. ويمكن أن تتعدد المقتضيات المتولدة عن الجملة بحسب صيغ ترتيب عناصرها وعلاقاتها بمقامات التلفظ. أما الأعمال اللاقولية فهي تخضع، وفق ما أورده محمد صلاح الدين الشريف، "إلى تواضع اجتماعي معين، فللأمر شرط الاستعلاء وللاستفهام شرط الجهل، وصيغ العقود منظمة بقوانين تحدد الصفات الجارية" (الشريف 1986، ص.115). وللسياق، كما يرى الشريف، دور في "تسيير استدلال المحادثة للبلوغ إلى العمل غير المباشر ولا شك أن مبادئ غرايس ليست إلا جزءا من مبادئ اجتماعية أعم ينبغي اكتشافها ودرسها" (الشريف 1986، ص.114).

ب-المُهْمت أو ما تحت المسموع (Sous-entendu): (الشريف 1986، ص113) أي ما خفي من مقاصد وراء المنطوق، وهو تقنية ماكرة ومخادعة تُفهَمُ من السياقِ وتُسوّغ للقائل الاحتماء وراء ستار المعنى. ويطلق عليه كذلك مصطلح الأقوال المضمرة، وهو الرسالة التي يتضمنها كلام ما أو يوحي بها بطريقة غير مباشرة من خلال محددات معينة مثل السياق والمقام، وهو مهمة المتلقي (Moeshler 1985, P.37, 38)، كما في المثال الآتي الذي ورد عند (صحراوي 2005، ص.32):

-إن السماء ممطرة.

فهذه الجملة تخفي وراءها عدّة مقاصد، وفق دراسة مسعود صحراوي، منها المكوث في البيت وعدم الخروج، ومنها عدم نسيان المظلة، منها الانتظار والتريّث حتى يكف المطر عن النزول.

ج– الاستلزام: يعتبر الاستلزام الحواري استنتاجا لاحقا نفهمه من الجملة المتلفظ بها. ويتضح ذلك في جملة: "أعتقد أن المحاضرة ستبدأ بعد ثوانٍ"؛ إذ تقتضي الجملة ما يستلزم من المحاور أن ينصرف ليفسح له المجال لتقديم محاضرته، أو أن يصمت عن الكلام. كما يستلزم الحوار الدائر بين أستاذين معنى ما:

–الأستاذ (أ) : هل الطالب (ص) مستعد لمواصلة دراسته الجامعية في تخصص الهندسة؟

–الأستاذ (ب) : إن الطالب (ص) لاعب كرة قدم ممتاز.

فرغم أن الردود غير متوائمة بين (أ) و (ب) إلا أن المعنى المستلزم للرد الثاني هو أن (ص) لن يواصل في تخصص الهندسة (صحراوي 2005، ص.33).

وتظهر ضمنيات القول في رواية "كجثة في رواية بوليسية" في الشكل (2) موزعة على ثلاثة مستويات؛ 1–المقتضى المسبق المولّد (قبليا) من الجملة الصريحة (تقيم الجثة في المستشفى)، وتتعدد مقتضياتها المسبقة، ومن أهمّها أنّ الشخصية الرئيسة فاطمة قبل الإقامة في المستشفى:

–كانت في صحة جيدة.

– ظهرت أعراض الإصابة فخضعت للتحليل.

– ثبت إصابتها بجرثومة كورونا.

2– المهمَت الذي اقتضته الجملة "تقيم الجثة في المستشفى" ويفهم من وراء المسموع، ما يلي:

- خَضَعت فاطمةُ للعلاج
- مرت بمرحلة ولادة عسيرة

3– الاستلزام الحواري: يتولّد المعنى الضمني استلزاما (بعديا)في الجمل الثلاث الآتية:

IJSR, VSRP Publishing, UK ISSN 2755-3418 (Online)
Website: https://ijsr.vsrp.co.uk

- حضر المقرر والمساعدة إلى مكان الجثة
- خضعت الجثة إلى التحقيق
- روت الجثة الأحداث

لقد نشأ السرد نتيجة استجابة الجثة واعترافها بما ارتكبت من أفعال وآثام وما مرّ بها من خيبات وإحباطات وما حلمت به من آمال وانتظارات، وقد تحققت تطلعات المقرّر مما دار مع الشخصية من حوارات على خلاف المساعدة التي رأت أنّ الجثة متحفّظة وغير متعاونة. وعندما انتهت مهمة المقرّر أَذِنَ للجثة بتوجيه رسالة أخيرة لتغادر الحياة نهائيا بالانتقال من الموت السريري إلى الموت الأسود المنجرّ عن الوباء.

(الشكل2)

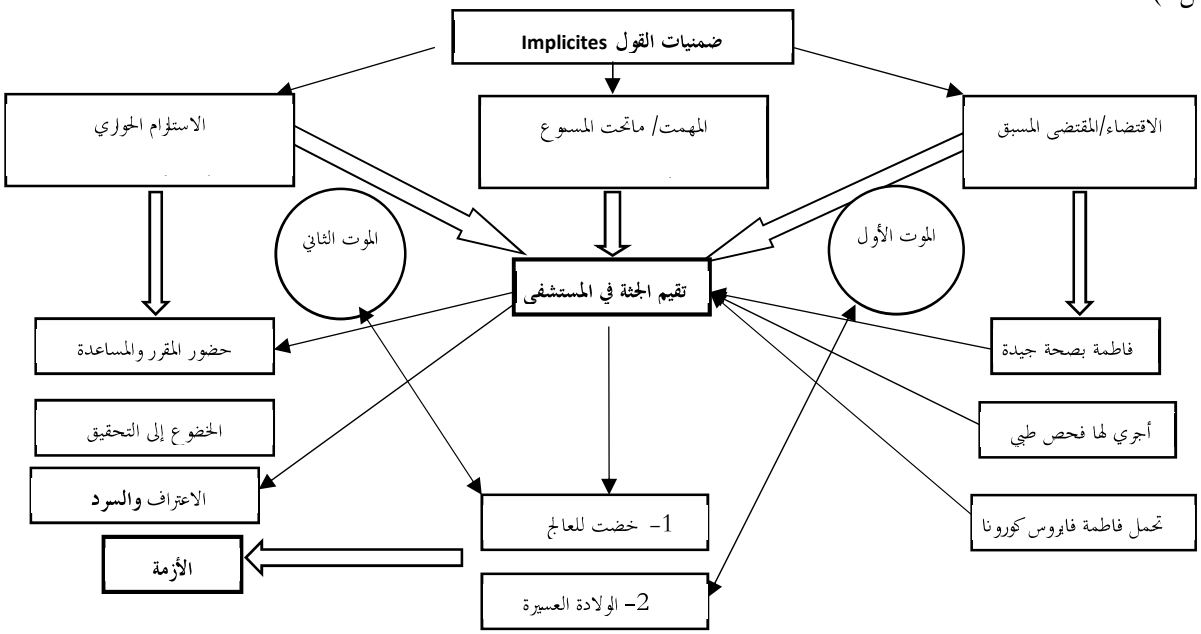

4.2–الاحتراب بالكلام في المناظرات السياسية:

عندما يسقط الحوار في الرداءة والإسفاف والضعف، أو يدور في غير مقامه المناسب، أو يلتبس فيه القول فلا يؤدي المعنى المراد أو ينحرف به التأويل المغالط عن انتظارات المحاور، يسوء الفهم ويلجأ المشاركون إلى الاحتراب بالكلام، لاسيما عندما يشعر الطرف الأدنى بالإهانة أو التعدي من الطرف الأعلى رتبة، أو يتلفظ الأدنى رتبة بما يراه الأعلى منه درجة تعديّا للحدود المسموح بها في الحوار، وهو ما حدث عندما شككت المساعدة في علاقة المقرر بالجثة وميوله نحوها ورغبته في السماح لها بالخروج من الحياة، عندئذ أنكر عليها المقرر قولها وصرخ في وجهها:

"احمرّ وجه المقرر حتى كاد ينفجر من الغضب:

إنّه تلميح في غير محلّه، أنيتِ أنني لا جنسي وهو أول ما يشترط في المقرر؟ عدّلي ملاحظاتك ازو احذفيها... ثم لا تنسي أنك تكلمين شخصا أعلى منك رتبة. أنا مراقب برتبة عميد وأنت مجرد رقيبة..."(ص.124).

وإذا كان الاحتراب بالكلام صريحا في معناه وفاضحا للمتحاورين في الأعمال المتخيلة كما عبرت عنه البصري في رواية "كجثة في رواية بوليسية"، فهو في مقام المناظرات التي تدور بين الساسة ورجالات الدولة يبدو صراعا خفيا مضمرا ورمزيا دالا. وذلك ما حدث فعلا في المناظرة التي دارت بين نائبي الرئيسين الأمريكيين مايك بنس وكامالا هاريس (مناظرة بنس هاريس استرجعت بتاريخ 2021/1/3) والتي عرضتها قناة العربية في السابع من أكتوبر (2020) مترجمة إلى اللغة العربية على شاشتها، وعنوانها "بنس هاريس هل يتجنبان المناظرة التي وصفت بالكارثية بين ترمب وبايدن". دامت المناظرة تسعين دقيقة ووزعت على ثلاث محاور أولها (وهو ما يعنينا هنا) يتصل بمسؤولية انتشار فيروس كورونا، وقد أدارت المناظرة الصحفية سوزان بيج بعناية مستهلة بكلمة قدمت فيها ضيفيها ثم توجهت بالسؤال الآتي لهاريس:

- الصحفية: السيناتورة هاريس، فيروس كورونا غير خاضع للسيطرة خلال الأسبوع الماضي، جونس هوبكنز أفادت بأن (39) ولاية انتشرت فيها خلال الأسابيع الماضية إصابات بكوفيد أكثر من قبل، تسع ولايات وصلت أرقاما قياسية، مع إطلاق اللقاح عن قريب، فإن الإدارة القادمة ستواجه خيارات صعبة، ماذا ستفعل إدارة بايدن هاريس في يناير ما لم تفعله إدارة ترمب؟ هل ستغلقون المدارس والشركات والمناطق الساخنة أم ستفرضون ارتداء الأقنعة؟ لك دقيقتان.

IJSR, VSRP Publishing, UK ISSN 2755-3418 (Online)
Website: https://ijsr.vsrp.co.uk

لقد كانت المناظرة منذ بدايتها في صالح هاريس التي وجهت إدانتها لإدارة ترمب متكلمة باسم الشعب الأمريكي، قدمت فيها حججها وأدلتها الدامغة على ذلك في مداخلاتها الثلاث وأهمها: خسارة (210.000) مواطن أمريكي ومواطنة وأكثر من سبعة ملايين شخص أصيبوا في الشهور الماضية.

–غلق شركة من كل خمس شركات إضافة إلى التستر عن خطورة الجائحة أمام الشعب الأمريكي منذ 28 يناير عندما ظهرت خمس حالات أولى، تحت ذريعة أنها خدعة كي لا يدخل الرعب في قلوب الناس. ثم قدمت تصورا لإدارتها الجديدة لحل كل تلك المشكلات ومنها مشكلة إعادة اللحمة للشعب الأمريكي بسبب النظرة غير العادلة للسود.

– وعندما سألته الصحفية: لماذا كان عدد الوفيات بالنسبة إلى سكاننا أعلى من أي دولة ثرية أخرى في العالم؟

– جاءت ردّ بينس باهتا في حديثه عن المحتمل وليس ما هو حاصل، فتوجيه التهم للمرشح بايدن والحكم عليه بالعجز على إيجاد الحلول من المفترض المضحك، كما أن الاحتجاج بأن إدارة ترمب هي الأكثر كفاءة وأنها حققت إنجازات طبية كبيرة لمواجهة الجائحة وحماية الأرواح، وأن أنفلونزا الخنازير في حكومة أوباما خسرت أكثر من حكومتهم، علاوة عن شجاعة إدارته على مقاطعة ثاني اقتصاد في العالم/الصين، أمر لن يرضي الشعب الأمريكي ولن يقنعه.

أما على مستوى الشكل فأسلوب بنس في المناظرة لم تَشُبه الحماسة والاندفاع، وإنما أسلوب من وضع نفسه موضع صدّ هجمات مناظرته، وإلقاء التّهم والافتراضات جزافا، إذ يقول: "كفوا عن مغالطة الشعب وتقويض الثقة. فعندما تتحدثين عما قدمناه بصورة مخالفة للحقيقة فهذا أمر يشكل عارا". أما عندما تعوزه الحيلة فيلجأ للشعب الأمريكي محاولا التأثير فيه بلغة عاطفية وأسلوب شعري تأثيري يعبر من خلاله عن حزنه لما حدث وتعاطفه معه وثقة ترمب فيه.

أما هاريس فتنحرف بذكاء بالحوار لتمجد مرشحها وتروي قصة اختياره لها نائبةً للرئيس، وقصة طفولتها عندما قدِمت إلى أمريكا مع والدتها، وهي تشترك أيضا مع بايدن في نجاحاتها السابقة ومشروعها الجديد المشترك..

وعندما يلطف بايدن الحوار بتذكيرها باتصاله الهاتفي لتهنئتها بالترشح، تعرج هاريس على أن الانتخابات يجب أن تصبّ في مصلحة الشعب الأمريكي والمخاطر التي تتهدده..

ويتجلى عنصر الاحتراب "البارد" في هذه المناظرة الطويلة ليكشف الحقائق ويُحمل المسؤوليات ويُدفع الثمن.

3- آفاق الحوار والخروج من الأزمة:

لما كانت طبيعة العلاقات الرابطة بين المشاركين تؤثر في أنماط التفاعل اللفظي وفي صيرورة المحاورة وحسن سيرها، فتسمها بالهدوء والتفاهم حينا وتدفعها في كثير من الأحيان إلى حدود الألم والتأزم، فإن التساؤل الممكن هو ما الجدوى من التحاور مع الآخر إنْ لم يكن حوارا نافعا حتى في أبسط أشكاله؟ ثم ما ضرَّ الحوارَ إنْ تجاوز المشاركون توقعاتهم السلبية والتمسوا الأعذار وداسوا على رتبهم المتفاوتة، مادام الهدف أنبلَ من المصلحة الفردية والنفعية المجحفة.

إن الإجحاف في القول بالظنّ والتصريح به، وتبرير الفشل في التحاور بخرق أفق الانتظار بين المتحاورين باب من الوساوس المشينة للعلاقات البشرية والدافعة للفرقة والانزواء. وهو ما يدعو الإنسان إلى مراجعة ذاته من حيث الأهلية للتحاور، وامتلاك أساليب الحوار وآلياته واستراتيجياته لتحقيق التعايش المشترك والخروج من الأزمة الطارئة.

1.3- تلطيف الكلام في المناقشة العلمية:

يشترط في الحوار ما يشترط في منجزيه من لطف في العبارة ونبلها وانتقاء المفردات المناسبة وإبداء الاحترام والتعاطف بعيدا عن التشدّق بالكلام النابي والتهوّر بغريب العبارة والإشارة البعيدة المعنى العصية عن الفهم.

ويجزم طه عبد الفتاح "أن الحوار، متى دار على معرفة بقواعده وبصيرة بآدابه، من شأنه أن يورثنا من اتساع الأفق وتقليب النظر ما لا يورثه "حديث النفس" ولو أن "حديث النفس" هو نفسه حوار مع الذات" (عبد الرحمن 2000، ص11)؛ لذلك دعا عبد الرحمن إلى ضرورة محاورة المسلم للمسلم وغير المسلم لأن الحوار واجب إنساني يجب أن يعمّ كل الفئات ويشمل كل الموضوعات، ففي ذلك زيادة لمعرفة الذات ومعرفة الآخر" (ص30).

إنّ محاورة الآخر الخارج عن ذواتها أمر لا مندوحة عنه طالما أننا في حاجة إليه، وأسمى تلك الحاجات تشييد صرح دائم من الوفاق والتعاون بين الأنا والأنت الذي هو الآخر المختلف أو المؤتلف عرقا ودينا وثقافة.

ولعل المتأمل في هذه المتوالية الواردة في محاضرة إبراهيم الكوني عن الأسطورة في الرواية، تتضح له مظاهر خرق مبادئ الخطاب وقوانين التلفظ (ندوة دولية لإبراهيم الكوني مسترجعة بتاريخ 2022/1/3).

قال محمد منور: الأساطير ملهمة للأعمال العظيمة لكن أتوقع أن أ. إبراهيم الكوني قد خانته العبارة عندما قال القرآن أساطير..

– إبراهيم الكوني: لا، لا، لا لم أقل أساطير عفوا.. لم أقل أساطير، إنه مليء بالأساطير...

– منوّر: لا، وحتى هذا، ليس ثري بالأساطير، دعني أكمل أ. إبراهيم، القرآن أنكر عن الذين قالوا بأن القرآن أساطير الأولين وأنه اكتتبها من الأمم الأخرى، وقال عنهم "لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين"، هذا أمر آخر، كون القصص القرآنية بعد ذلك تطورت وحُمّلت مثل الكوميديا الإلهية كما تَحدثت عن الإسراء والمعراج واستلهمها الأدباء هذا أمر آخر، لكن أنا أتوقع أنك لا تريد...

–الكوني: (يقاطعه) هذا ما أعنيه، يا رجل، هذا ما أعنيه بالأساطير أنا..

– منوّر: فكلّ ما في القرآن حقيقة، هذا ما أردت أن أقوله.. لأن المبدع يتخيّل وينتج أعمالا ممكنة الوجود.. شكرا جزيلا.

– معجب العدواني: شكرا أ. محمد. للتفسير.. أ. إبراهيم..

–الكوني: (مقاطعا) لا، لا، أتركني، أتركني أفهّمه، نبدو في الاصطياد في الماء العكر... أنا قلت فعلا بأن القرآن مليء بالأساطير..

– منوّر: (مقاطعا) حتى هذه العبارة نفسها موقعة في المحظور..

– الكوني رجاء.. في سورة آل عمران، ما هي سورة آل عمران؟ فسّر لي.. يسمونها القَصص. (وتتداخل أصوات المشاركين وتتشابك).

ثم بعد تدخل الأستاذ معجب العدواني لتلطيف الحوار عقبت الأستاذة نادية شقروش قائلة: أنا من الأول عندما تكلم أ. إبراهيم عن الأسطورة كنت أعلم يا دكتور أنه سيُساءُ فهمه...". ثم تستمر المناقشة حتى ختمت الأمسية.

ويظهر من خلال هذه المحاورة كيف خُرق قانون المناسبة، وانحرف المناقش بالحوار عن وجهته الأصلية بانتقاد أسلوب المحاضرة، كما عطل مبدأ والتعاون والإخبار.

وإذا كان مآل القضايا الأيديولوجية الجدل والنزاع في حال انحراف المتحاورين عن الهدف وهو عدم إلزامية تحقق الإقناع، فإن المساس ببعض "التابوهات" في الحوارات يمثل شرارة للاحتراب بالكلام وتشديد اللهجة في النقاش ذلك أن بعض المجتمعات تعدّ مناقشة القضايا المقدسة نوعا من التقول والبدعة لاسيما إذا كان المتحاورون في مقام عقائدي واحد.

2.3– فنّ التأدب والكياسة واللباقة في المقابلات الإعلامية:

يُعدّ الاحترام (Respect) والتأدّب (Politeness) من نظرية الكياسة (جيني 2010، ص175) إحدى مباحث تداولية الحوار. إلا أنّ جيني توماس لا يعتبر الكياسة من التداولية، ويرى أن الاحترام والكياسة متمايزان رغم أنهما نظامان مترابطان فـ" بإمكانك أن تكون محترما دون أن تكون كيّسا" (جيني 2010، ص.180). وعلى الرغم من موقف جيني توماس، فإنّ الكياسة تُعتبر من العناصر المؤثرة في لغة الحوار.

ويمثل التأدّب خطابا موجها إلى متلق مستخدما أساليب التهذيب والكياسة، والظرافة، ولطف العبارة، والقول الصادق الحسن. ويُنجزه المحاور بأفعال الالتماس، والإغراء، وطلب الفضل، والرجاء، والشكر، والامتنان، ووضوح العبارة مثل: من فضلك ناولني الدواء. لو سمحت اتركني أتكلم، عفوا، ليس هذا ما قصدت...

– ويقوم هذا المبدأ وفق لاكوف على قاعدتين: كن واضحا، كن مؤدبا. ومن قواعد التلطيف ما صاغه لاكوف أيضا ومفادها ألا تفرض نفسك على الآخرين ولا تتطفل عليهم، ودع للمخاطب حرية اتخاذ قراره بنفسه.

ومن الأمثلة على عدم احترام أسلوب التأدّب في الكلام ما أوردته صحيفة (C News) الفرنسية من تصاعد لهجة الرئيس الفرنسي ماكرون في أثناء مناقشة أحد الفلاحين عندما كان يتجول في أروقة معرض أقيم في باريس متحدثا عن مادة "الغليفوسات" المستخدمة في الفلاحة ويُعتقد أنها مسببة للسرطان. قال الفلاح للرئيس(ف): "نحن هادئون.. يجب أن تهدأ أيضا.. تحدث معي بأدب..

– (م) ما هذا؟ انتظر!

– (م) هل أنت هادئ؟

– (ف) قليلا من الاحترام سيدي...

IJSR, VSRP Publishing, UK ISSN 2755-3418 (Online)
Website: https://ijsr.vsrp.co.uk

– (م) لا لا لا لا لا.. أنت لم تُعِرْ كلامي اهتماما منذ قليل.

– (م) أولا، أنا سعيد لأنك فعلت ذلك.. انتظر.. إذن، أنت لم تعطني سببا لأتكلم بهدوء.." (مقطع فيديو مسترجع تاريخ 2021/1/3).

وتتواصل المحاورة بنفس النسق من الحدّة إذ يحاول كل من الطرفين إثبات عدم التزام الطرف الآخر بمبادئ الحوار، بل إن ماكرون يسحب البساط من محاوره بتكرار كلماته واستخدام أسلوب الاستفهام الإنكاري ليبرر طريقته في الحوار ويحمله مسؤولية التشنج، وبذلك يتمكن من فرض رأيه. إلا أن تداخل الأقوال وعدم وضوحها بسبب التوتر المتبادل ومحاولة الرئيس ماكرون الظهور بمظهر المتأدب والكيس، فإن ارتفاع نبرات صوته التي لازمها الانفعال وغالبها التوتر، أمر لا يليق بمقام رئيس يرغب في إجراء محاورة مقنعة توضح للفلاحين سبب منع استخدام ذلك العقار.

3.3– الذكاء العاطفي:

يتربص الانفعال بالمتحاورين فينشأ من مثيرات ويتولد من مواقف أو لأقال ولا يكاد يخلو منه خطاب. ويشمل الانفعال مشاعر السعادة والاطمئنان والاستجابة والإشباع، أو يكون سلبيا عندما تسيطر مشاعر القلق والتوتر أو الغضب على الإنسان. وقد أشار بارتولو إلى ذلك بقوله "هناك محور انفعالي عاطفي، تنعكس فيه المشاعر الإيجابية أو السلبية التي تجمع المتحاورين" (Berthelot 2001, P.9,10). ولكي يتجنب المحاوران أو أحدهما الانفعال السلبي ينبغي إتقان تقنيات المحاورة وأساليب إجرائها، مثل الاستدراج لطرح السؤال، والإفصاح عن الرأي وتجنب المراوغة، وعدم ادّعاء تملّك الحقيقة، والالتزام بطلب "المذاكرة" وترك "المهاترة" وهي "ما ينشأ من التنافس وإيثار الغلبة، وأما المذاكرة فالمقصود بها طلب الفائدة، كالرأي المعروض على العقول المختلفة إلى أن يقع عليه الاختيار بعد الاتفاق" (التوحيدي 1982، ص.107).

إننا عندما نتفاعل مع المحيطين بنا "نرسل لهم إشارات عاطفية إشارات تؤثر فيهم. وبقدر ما نكون حاذقين اجتماعيا، تكون قدرتنا أفضل فيما نرسله من إشارات عاطفية، ونضمن حفاظنا على مجتمع مهذب. إنها –ببساطة– الوسيلة التي تضمن عدم تسرب الانفعالات المزعجة التي تسبب الضيق والتكدر إلى علاقاتنا. والذكاء العاطفي يشمل إدارة هذا التبادل، للإشارات. وتعبير "هذا الإنسان محبوب وجذاب"، نستخدمه حين نصف أشخاصا "نحب صحبتهم" لأن مهارتهم العاطفية تجعلنا نشعر أننا بخير. فالأشخاص القادرون على مساعدة الآخرين

وإشباع رغباتهم يملكون سلعة اجتماعية ذات قيمة خاصة. إنّهم الأرواح التي يلجأ إليها الآخرون عندما يحتاجون إلى العاطفة أشد الاحتياج. فنحن جميعا جزء من طاقم إنساني يجمعنا معا، نتبادل فيه العواطف لنكون في حالة أفضل أو أسوأ" (جولمان 2000، ص.170).

ومن استراتيجيات الذكاء العاطفي، الصدق والتصديق ومجانبة التخوين، والاتجاه نحو المحاور، ومجاملته. وإذا ما شعر المحاور المتعاون بخطر الانتقال إلى انفعال سلبي فإنّ الصمت الواقعي بوصفه "لغة كل الانفعالات: الحب والغضب والمفاجأة، الخوف" عندما يتخلّل المحاورة يوحي للمحاوَر ضمنيا بما عجزت اللغة عن تبليغه؛ وهو ما يعني أنّ الصمت المطلق غير موجود، وفق عبارة برونو، وكلّ محاولة لافتراضه تعدّ ضربا من الوهم (Bruneau 1973. P.11). ويعتبر ذلك من التعبير الانفعالي الصامت الذي يعدل من حدة الجدل أو السجال ويلطّفه، إذ إن "توافق الانفعالات في التفاعل بين البشر علامة على عمق تمكن الإنسان على المستوى العاطفي. إنها القدرة على استشفاف الحالة المزاجية لدى الآخر" جولمان (جولمان 2000، ص.173).

4.3– الذكاء الاجتماعي:

يرى دانييل جولمان أنَّ المهارة اللازمة "للقائد، أن يبدأ بتنسيق جهود مجموعة مشتركة من الأفراد. هذه هي القدرة العقلية التي يتمتع بها المخرجون، أو منتجو الأعمال المسرحية، والعسكريون، ورؤساء المنظمات.." (جولمان 2000، ص.175)، الذين لديهم المقدرة على منع حدوث النزاعات "أو يستطيع إيجاد الحلول للنزاعات التي تنشب بالفعل. هؤلاء الوسطاء الذين لديهم هذه القدرة، يتفوقون في عقد الصفقات، وفي قضايا التحكيم" (جولمان 2000، ص517)، ولديهم من الموهبة والذكاء الاجتماعي ما يُسيّرُ الحوارات والنقاشات.

وتقوم الوساطة على عامل الذكاء الاجتماعي للحفاظ على الانسجام والتوافق، وسبيلها حسن إدارة النقاش كذلك الذي أعقب محاضرة الروائي الليبي إبراهيم الكوني مع محمد منوّر. درات المناقشة حول قضية اختراق المباح من الكلام في منظور المخيال العربي الإسلامي وفي العادات والتقاليد؛ مثل هذه القضايا كثيرا ما تثير الجدل واللغط والسجال الفكري الحاد.

لقد اقتضت المناقشة من المشاركين قدرا من التنازل من أجل المحافظة على أواصر الصداقة والتعاون داخل المجتمع؛ إذ إنّ الإنسان كائن اجتماعي تفاعلي بطبعه، موكول إليه تشييد علاقات وطيدة مع بني جلدته ومدّهم يد المساعدة متى استطاع إلى ذلك سبيلا، كما يهدف الحوار بين الأفراد والجماعات في المؤسسات وإجراء المناقشات إلى تحقيق المنفعة والفائدة وتقديم الخدمة وتبادل المصالح، وهو ما يقتضي الالتزام

بأصول الاحترام المتبادل والتحلّي بالأخلاق العالية، واحترام الذات والخصوصيات وعدم التمادي في السلوكيات المشينة، ومراعاة مقتضى الحال، والتماس الأعذار، وهو الهدف الحقيقي من التواصل المجدي من أجل بناء مجتمع سليم معافى.

–النتائج والتوصيات:

تبين من خلال المدونة المنتخبة ما للظروف الصحية والوبائية العالمية اليوم وما سبقها وما تزامن معها من حروب وصراعات، من تأثير على عدم استمرارية الحوار النافع، كما تبين دور القيم والأخلاقية والدينية والإنسانية في تعديل الكفّة وتغيير طبيعة التفاعلات اللفظية وعادات التواصل بين أفراد المجتمع.

كما اتضح أنّ عدم التزام الأطراف المتحاورة بمبادئ الحوار وحكمه ومنها مبدأ التعاون، ومراعاة سياق التلفظ وأحوال السامعين كثيرا ما يؤدي إلى تحريف المعنى وتعدد التأويلات وبثّ حالة من سوء الفهم وخرق أفق توقع المخاطَب، مما زاد من تأزّم الحوار وانحرافه عن أهدافه؛ إذ كشفت النماذج المدروسة درجة انحدار مستوى الحوار وتأزمه؛ فإذا عرّى الحوار في رواية عائشة البصري عالما خفيّا لا يدركه إلا من بلغه، فقد قدم أيضا حكمة بليغة ودرسا للإنسانية لتتنبه إلى المخاطر التي تهدّدها قبل فوات الأوان، نقلتها أحداثٌ متخيلةٌ وحوارٌ مخترقٌ للواقع دالٌّ على مأساة الإنسان يتأرجح بين عالمين متناقضين: الفرح والألم، والسعادة والحزن، والحياة والعدم.

وكشفت نماذج أخرى من التفاعلات اللفظية كيف وجهّت الأحكام المسبقة والافتراضات غير المنطقية الحوارات وأدّت إلى فشل المحاور في إقناع المستمعين بموقفه، بينما ساعدت الحجج المنطقية والرؤية الواضحة والأدلة العلمية على كشف أساليب التضليل والمغالاة والتنصل من المسؤولية.

وإذا كان الأمر يقتضي في بعض المحاورات مزيدا من الحكمة والتعقل والتحلّي بالنزاهة والإفاضة في الصبر على الآخرين، والزيادة في الشرح والإقناع، ومجانبة سوء الفهم، واللجوء إلى الخصام، فإنّ آفة الغضب وحِدّةَ الطبع كثيرا ما عرقلت المفاوضات وحالت دون تحقيق الوئام بين أفراد مجتمعات هذا العالم.

وبناء على ذلك يَحسن بالمتكلم ألا يُلقي أقواله بين الناس على عواهنها، وإنما ينتقي من العبارات المناسبة أسماها، ويستخير من الأساليب أفضلها وأرقاها مراعاة لمقتضى حال المخاطَب وخدمة لأهداف التفاعل وغاياته. هذه الشروط لن تكون في حكم الإمكان ما لم يمتلك

المشاركون أدوات اللغة، والمعجم، والأسلوب، والمنهج، لمعرفة مقاصد المتكلمين في مقامات التلفظ المناسبة. كما أنّه على أطراف المحادثة أو المناقشة أو المناظرة مراعاة منطق الحوار في أي تفاعل مباشر أو غير مباشر وترسيخ ثقافة الحوار في المعاملات، ذلك أنّ الكلام الجارح أو القادح، أو الخادش للحياء، يُنقشُ على صفحات الذاكرة ويصعبُ محوه، بينما تُتْلف الذاكرة أمواجا من الكلام الهامشي والثانوي الذي قد يلتطم بها أكثر من عشرات المرات يوميا.

ولإنقاذ التفاعل من الفشل على المحاور المتوتر أن يلطّف أجواء التفاعل بالتحلّي بالصبر والتسامح، والتآزر في الإبلاغ والوضوح لتجاوز ما تحدثه الجوائح من قلق واضطراب نفسي وخلل في التوازن بين العلاقات في مختلف شرائح المجتمع بالخروج إلى الطبيعة الرحبة والفضاء المتسع.

إنّ مشاهد الموتى وهم يزفون بالعشرات والمئات والآلاف إلى مثواهم الأخير، وزيادة انتشار العدوى بين الناس على موجات مكبرات الصوت ووسائل التواصل، لمدعاةٌ للقلق والتساؤل حول مصير البشرية لا سيما في الدول النامية، في عصر يتجه فيه شقّ من العالم إلى التكيف، وتضميد الجروح، والعمل على تطوير آليات التعلّم عن بعد وتنظيمها بقوانين وتشريعات فعّالة، والبحث على سبل بديلة لتعميق التحصيل العلمي والتقدم المعرفي والتقني وتطوير العلوم الاقتصادية والطبية.

- **قائمة المصادر والمراجع**

- **باللغة العربية:**

أوستين، جون (2008). نظرية أفعال اللغة، كيف ننجز الأشياء بالكلمات، ترجمة: عبد القادر قنيني، (د.ط)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء.

إيلام، كير (1992). سيمياء المسرح والدراما، ترجمة: رئيف كرم، ط.1، المركز الثقافي العربي، بيروت– الدار البيضاء.

البصري، عائشة (2020). كجثة في رواية بوليسية ط.1، الدار اللبنانية المصرية للنشر والتوزيع، القاهرة.

بارت، رولان (1999). هسهسة اللّغة، ترجمة: منذر عياشي. ط.1، مركز الإنماء الحضاري، حلب.

التوحيدي، أبو حيان (1982). الإشارات الإلهية، تحقيق ومراجعة: وداد القاضي، (د.ط) دار الثقافة، بيروت.

جيني، توماس (2010). المعنى في لغة الحوار: مدخل إلى البراغماتية (التداولية)، ترجمة: نازك عبد الفتاح، (د.ط)، دار الزهراء، الرياض.

الجزيري، الطاهر (2011). الحوار في الخطاب، دراسة تداولية سردية في نماذج في الرواية العربية الجديدة، ط.1، آفاق للنشر والتوزيع، الكويت.

جولمان، دانييل (2000). الذكاء العاطفي، ترجمة: ليلى الجبالي ومحمد يونس، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

خطّابي، محمّد (1991). لسانيات النصّ (مدخل إلى انسجام الخطاب)، ط.1، المركز الثقافي العربي، بيروت –الدار البيضاء.

الروبي. ألفت كمال (1996) محاورات التوحيدي وتعدّد الأصوات، مجلّة فصول: مج (14)، ع (54)، ج (2)، القاهرة، (ص.143-166)

روبول، آن وموشلير، جاك (2003). التداولية اليوم: علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدّين دغفوس ومحمّد الشيباني. ط.1، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للنشر والتوزيع، تونس

الشريف، محمد صلاح الدين (1986). تقديم عام للاتجاه البراغماتي، ضمن "أهم المدارس اللسانية"، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس.

صحراوي، مسعود (2005). التداولية عند العرب، ط.1، دار الطليعة، بيروت.

عبد الرحمن، طه (2000). في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط.1، المركز الثقافي العربي، بيروت–الدار البيضاء.

عزّت، أحمد (1973). أصول علم النفس، ط.9، الكتاب المصري الحديث للطباعة والنشر، القاهرة.

مانغونو، دومينيك (2008). المصطلحات المفاتيح، ترجمة: محمد يحياتن. ط.1، الدار العربية للعلوم ناشرون، ومنشورات الاختلاف، بيروت–الجزائر.

ميلاد، خالد (2001). الإنشاء في العربية بين التركيب والدّلالة، دراسة نحوية تداولية، جامعة منّوبة، كليّة الآداب، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس

نظيف، محمد (2010). الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، دار أفريقيا الشرق، المغرب

هوانغ، يان (2020). معجم أكسفورد للتداولية، ترجمة: هشام إبراهيم الخليفة، ط.1، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان.

- **باللغة الأعجمية:**

Adam, Jean- Michel : (2001). Les textes ; types et prototypes, éd. Nathan/ HER, 4ème éd. Paris.

Bruneau, Thomas-J : (1973). Le silence dans la communication, communications et langages, n° 20, France.

Durrer, Sylvie : (1999). Le dialogue dans le roman, Nathan Université, Paris.

Durrer, Sylvie : (1990). Le dialogue romanesque : Essai de de typologie, Pratique n°65 mars.

Ducrot, Oswald : (1980). Dire et ne pas dire, collection savoir, Paris.

Encyclopédie Universalise- Corpus7, (1996). France

Francis Berthelot : (2001). Parole et dialogue dans le roman, éd. Nathan/ HER, Paris

Kerbrat- Orecchioni, Catherine: (1998). Les interactions verbales. Tome1, 3eme eds. Armand Colin Paris.

Maingueneau, Dominique : (1990), Pragmatique pour le discours littéraire, Bardas, Paris

Mœshler, Jacques : (1985). Argumentation et conversation : éléments pour une analyse de pragmatique de discours, Hatier-credif, Paris.

Mœshler, Jacques : (2006). Le raisonnement causal : de la pragmatique de discours al la pragmatique expérimentale. Nouveaux cahiers de linguistique française, n°27, France.

Parret, Herman : (2002). La voix et son temps, De Boeck et Larcier, Bruxelles.

Sarfati. Georges-Elia ; (1997). Eléments d'analyse de discours, Nathan, Paris.

- **مقاطع فيديو من اليوتيوب:**

ندوة دولية لإبراهيم الكوني مسترجعة بتاريخ2022/1/3)

https://www.youtube.com/watch?v=QrmqJhff_uQ&list=UUoOtKhxgkkV4r7F8VrTGqLg

محادثة لماكرون مسترجعة بتاريخ 2021/1/3

https://www.youtube.com/watch?v=yqPytKzw7xc

مناظرة بنس هاريس مسترجعة بتاريخ 2021/1/3

https://www.youtube.com/watch?v=pizzGjPcr3s